المنهج العلمي

لطلاب العلم الشرعي

وبعض الفوائد والنكات العلمية

راجعه وقرظه

فضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

تأليف

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

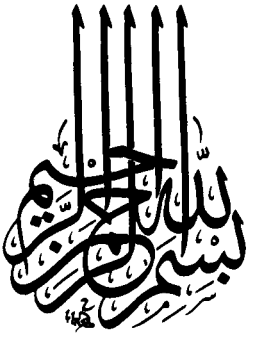

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الرابعة

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

للمراسلة على البريد الإلكتروني: turki_1428@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ وَحْدَه، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَه مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِه.

وبَعْدُ؛ فَقَدْ قَرَأتُ هَذِه الرِّسَالَةَ الَّتِي أَلَّفَها أَخُوْنا الشَّيْخُ : ذِيَابُ بنُ سَعْدٍ الغَامِدِيُّ حَفِظَه اللهُ تَعَالَى ووَفَّقَه!

والَّتِي نَصَحَ فيها طَلَبَةَ العِلْمِ الصَّحِيْحِ، وبَيَّنَ طُرُقَ التَّعَلُّمِ، وفَصَّلَ العِلْمَ، ووَسَائِلَه، وأَسْبَابَ تَحْصِيْلِه، وذَكَرَ بَعْضَ الكُتُبِ الَّتِي يَهِمُّ الطَّالِبُ أنْ يَقْرَأها، وحَذَّرَ الطَّالِبَ مِنَ العَوَائِقِ الَّتِي تَشْغُلُه عَنِ التَّحْصِيْلِ، وفَصَّلَ في ذَلِكَ .

فَجَزَاهُ اللهُ أَحْسَنَ الجَزَاءِ، وأَكْثَرَ في الأمَّةِ مِنْ حَمَلَةِ العِلْمِ الَّذِيْنَ يَهْتَمُّوْنَ بالطَّلَبِ، ويَحْرِصُوْنَ عَلَى التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيْمِ والتَّطْبِيْقِ، واللهُ أَعْلَمُ .

وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِه وسَلَّمَ

(٢٦/ ٥/ ١٤٢٥ هـ)

عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجِبْرِيْن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله حَمْدًا كَثِيْرًا، طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه، القَائِلِ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والقَائِلِ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى عَبْدِه ورَسُوْلِه المَبْعُوْثِ رَحْمَةً للعَالَمِيْن، القَائِلِ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(١)، والقَائِلِ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ**»(٢)!

أمَّا بَعْدُ: فإنَّ أوْلَى مَا يَتَنَافَسُ فيه المُتَنافِسُوْنَ، وأحْرَى مَا يَتَسابَقُ في حَلَبَتِهِ المُتَسابِقُوْنَ: العِلْمُ الشَّرْعِيُّ، فَهُوَ الكَفيلُ الضَّامِنُ بالِسَّعَادَةِ البَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ، والدَّلِيْلُ الآمِنُ إلى خَيْرَيْ الدُّنْيا والآخِرَةِ.

وأدَلُّ شَيْءٍ عَلَى ذَلِكَ؛ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدِ اخْتَصَّ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ أحَبَّ، فَهَدَاهُم للإيْمَانِ، ثُمَّ اخْتَصَّ مِنْ سَائِرِ المُؤْمِنِيْنَ مَنْ أحَبَّ؛ فَتَفَضَّلَ عَلَيْهِم فَعَلَّمَهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ، وفَقَّهَهُم في الدِّيْنِ، وعَلَّمَهُم التَّأوِيْلَ،

---

(١) أخْرَجَهُ ابنُ عَدِيٍّ في «الكَامِلِ» (٣/ ١١٠٧)، والبَيْهَقِيُّ في «المَدْخَلِ» (٣٢٤) وغَيْرُهُما، وهُوَ حَسَنٌ بشَوَاهِدِه.

(٢) أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١/ ٢٧)، ومُسْلِمٌ (٣/ ٩٥).

وفَضَّلَهُم عَلَى سَائِرِ المُؤْمِنِيْنَ، وذَلِكَ في كُلِّ زَمَانٍ وأوَانٍ؛ رَفَعَهُم بالعِلْمِ، وزَيَّنَهُم بالحِلْمِ، بِهِمْ يُعْرَفُ الحَلالُ مِنَ الحَرَامِ، والحَقُّ مِنَ البَاطِلِ، والضَّارُ مِنَ النَّافِعِ، والحَسَنُ مِنَ القَبِيْحِ[1].

إنَّه العِلْمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالِحُ اللَّذَانِ لا سَعَادَةَ للعَبْدِ إلاَّ بِهِما، ولا نَجَاةَ لَهُ إلاَّ بسَبَبِهِما، فَمَنْ رُزِقْهُما فَقَدْ فَازَ وغَنِمَ، ومَنْ حُرِمْهُما فَقَدْ خَسِرَ وغَرِمَ، وهُمَا مَوْرِدُ انْقِسَامِ العِبَادِ إلى مَرْحُوْمٍ ومَحْرُوْمٍ، وبِهِما يَتَمَيَّزُ البَرُّ مِنَ الفَاجِرِ، والتَّقِيُّ مِنَ الغَوِيِّ، والمُؤْمِنُ مِنَ المُنَافِقِ، والظَّالِمُ مِنَ المَظْلُوْمِ، وهَاكَ حَقًّا: «**خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ في مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ، ولا فِقْهٌ في الدِّيْنِ**»[2]!

نَاهِيْكَ؛ أنَّ السَّمَوَاتِ والأرْضَ ما قَامَتَا إلاَّ بالعِلْمِ، بَلْ مَا بُعِثَ الرُّسُلُ، وما أُنْزِلَتِ الكُتُبُ، ومَا فُضِّلَ الإسْلامُ عَلَى غَيْرِه إلاَّ بِهِ، وفَوْقَ ذَلِكَ؛ ما عُبِدَ اللهُ، ولا عُرِفَ الإيْمَانُ مِنَ الكُفْرِ إلاَّ بِهِ!

* * *

فَشَمِّرْ يا طَالِبَ العِلْمِ، سَائِلاً اللهَ تَعَالَى: الإرَادَةَ الصَّادِقَةَ، والعِلْمَ النَّافِعَ، واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم بالعِلْمِ والإيْمَانِ.

---

(١) انْظُرْ «أخْلاقَ العُلَمَاءِ» للآجُرِّي (١٤) بتَصَرُّفٍ.

(٢) أخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٨٤)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

فإنَّه لا يُسْتَطَاعُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجَسَدِ، ولا يُطْلَبُ بالتَّمَنِّي والتَّحَلِّي، وقَدْ قِيْلَ: مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ تَرَكَ الرَّاحَةَ؛ إنَّها العَزِيْمَةُ الصَّادِقَةُ، والهِمَّةُ العَالِيَةُ، ولا يَحْزُنْكَ فَاتِرُ العَزِيْمَةِ، ودَعِيُّ العِلْمِ، فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَيْهِم أسَفًا؟!

فَقَدْ رَأَيْنا كَثِيْرًا مِنْ طُلابِ زَمَانِنا قَدِ اسْتَطَابُوا الدَّعَةَ، واسْتَوْطَؤُوا مَرْكَبَ العَجْزِ، وأعْفَوْا أنْفُسَهُم مِنْ كَدِّ النَّظَرِ، وقُلُوْبَهُم مِنْ تَعَبِ الفِكْرِ ... فلَعَمْرِي أيْنَ مَنَالُ الدَّرَكِ بغَيْرِ سَبَبٍ، وأيْنَ نَوَالُ البِغْيَةِ بغَيْرِ آلَةٍ؟ فإنَّ دُوْنَ مَا يَشْتَهُوْنَ خَرْطُ القَتَادِ، وبَيْنَ مَا يَتَمَنَّوْنَ بَرْكُ الغِمَادِ!

***

فاعْلَمْ رَعَاكَ الله؛ أنَّ جَمْهرةً مِنْ أهْلِ العِلْمِ قَدْ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ في خِدْمَةِ هَذِه الجادَّةِ العَلِيَّةِ، ورَسْمِ بَصَائِرِها لِشَادِي العِلْمِ مِنْ خِلالِ تَوَالِيْفَ عِلْمِيَّةٍ، ومُصَنَّفَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ ... غَيْرَ أنَّنِي لَمَّا رَأيْتُ شَأنَهَا بَيْنَ أهْلِ زَمَانِنا في نُقْصَانٍ، ومُدَارَسَتَها في نِسْيَانٍ، وكَادَ يَذْهَبُ رَسْمُها، ويَعْفُو أثَرُها؛ عِنْدها أحْبَبْتُ أنَّ أرْمِيَ بِسَهْمٍ في رِيَاضِ العِلْمِ، مُسَاهَمَةً مِنِّي في رَسْمِ (المَنْهجِ العِلْمِيِّ) لِطُلابِ العلمِ؛ يَوْمَ نَادَى كَثِيْرٌ مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْنا إجَابَتُهُم في إحْيَاءِ

هَذِه الجَادَّةِ، وتَبْصِيْرِ مَنَارَاتِها ... فعَسَانِي آخُذُ بيَدِ مَنْ رَامَ إرْثَ الأنْبِيَاءِ إلى بَابِ العِلْمِ، بِسَبِيْلٍ قَرِيْبٍ، ونَظَرٍ أرِيْبٍ، مِمَّا سَيُقَرِّبُ الطَّرِيْقَ للمُبْتَدِي، ويُبَصِّرُ السَّبِيْلَ للمُنْتَهِي، والعَاقِبَةُ للتَّقْوَى[1].

ومَا كُنْتُ مُسْتَنْكِفًا في هَذِه الطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ لكِتَابِ (المَنْهجِ العِلْمِيِّ) مِنْ تَوْرِيْدِ بَعْضِ الزِّيَادَاتِ العِلْمِيَّةِ والتَّصْحِيْحَاتِ القَيِّمَةِ الَّتِي قَضَاها مَمْحُوْضُ النَّصِيْحَةِ، ومَمْحُوْصُ الأمَانَةِ، فَإلى المَوْعُوْدِ، وإلى الله تُرْجَعُ الأمُوْرُ[2]!

---

(١) هُنَاكَ كَثِيْرٌ مِنَ التَّوَالِيْفِ العِلْمِيَّةِ الآخِذَةِ بيَدِ طَالِبِ العِلْمِ إلى بَيَانِ مَنْهَجِ العِلْمِ والتَّعَلُّمِ، وفَضَائِلِه، وغَوَائِلِه، وطَرَائِقِه، وشَرَائِطِهِ، وآدَابِهِ، فَمِنْ جِيَادِها وحِسَانِها: «جَامِعُ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابنِ عَبْدِ البرِّ، و«الجَامِعُ لآدَابِ الرَّاوي» و«الفَقِيْهُ والمُتَفَقِّهُ» كِلاهُمَا للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ، و«أخْلاقُ العُلَمَاءِ» للآجُرِّي، و«تَذْكِرَةُ السَّامِعِ والمُتَكَلِّمِ» لابنِ جَمَاعَةَ، و«تَعْلِيْمُ المُتَعَلِّمِ طَرِيْقَ التَّعَلُّمِ» للزَّرْنُوْجِيِّ، و«أدَبُ الطَّلَبِ» للشَّوكَانِيِّ، و«حِلْيَةُ طَالِبِ العِلْمِ» لبكرٍ أبو زَيْدٍ، وهُنَاكَ غَيْرُ مَا ذُكِرَ.

(٢) كَانَ الانْتِهَاءُ مِنْ تَصْحِيْحَاتِ هَذِه الطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ ضُحَى يَوْمِ الأرْبِعَاءِ، المُوَافِقَ للعِشْرِيْنَ مِنْ شَوَّالٍ، لعَامِ ألْفٍ وأرْبَعْمائَةٍ وثَمانٍ وعِشْرِيْنَ (٢٠/ ١٠/ ١٤٢٨).

وذَلِكَ مِنْ خِلالِ ثَلاثَةِ مَدَاخِلَ، وأَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ مُخْتَصَرَةٍ، كَما يَلي :

المَدْخَلُ الأَوَّلُ : أَهَمِيَّةُ طَلَبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ .

المَدْخَلُ الثَّانِي : فَضْلُ عُلُوْمِ الغَايَةِ عَلَى عُلُوْمِ الآلَةِ .

المَدْخَلُ الثَّالِثُ : وفيه أَرْبَعُ طَلائِعَ .

البَابُ الأَوَّلُ : وفيهِ أَرْبَعُ مَرَاحِلَ عِلْمِيَّةٍ .

البَابُ الثَّانِي : وفيهِ خَمْسُ تَنَابِيْه .

البَابُ الثَّالِثُ : وفيهِ ثَلاثُ عَزَائِمَ .

البَابُ الرَّابِعُ : وفيهِ خَمْسةُ عَوَائِقَ .

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى عَبْدِه ورَسُوْلِه الأَمِيْنِ

وكَتَبَهُ

ذِيَابُ بْنُ سَعْدٍ آلُ حَمْدَانَ الغَامِدِيّ

في لَيْلَةِ الأَحَدِ لعَشْرٍ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ لِعَامِ أَلْفٍ وأَرْبَعْمائَةٍ وخَمْسَةٍ وعِشْرِيْنَ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، حُرِّرَ في (٢٠/ ٢/ ١٤٢٥)

المَدَاخِلُ العِلْمِيَّةُ

وفيه ثَلاثَةُ مَدَاخِلَ

المَدْخَلُ الأوَّلُ : أهَمِيَّةُ طَلَبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ

المَدْخَلُ الثَّانِي: فَضْلُ عُلُوْمِ الغَايَةِ عَلَى عُلُوْمِ الآلَةِ

المَدْخَلُ الثَّالِثُ : وفيه أرْبَعُ طَلائِعَ

المَدْخَلُ الأوَّلُ

أهَمِّيَةُ طَلَبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ

نَعَمْ؛ فإنَّ النَّاسَ أحْوَجُ إلى العِلْمِ مِنْهُم إلى الطَّعَامِ والشَّرَابِ، لاسِيَّما هَذِه الأيَّامَ الَّتِي نَطَقَ فيها الرُّوَيْبِضَةُ، ونَعَقَ بَيْنَها غُرَابُ الصَّحَافَةِ، مَعَ نَفَثَاتِ المُرْجِفينَ، وتَخْذِيْلِ المُتَعالِمِيْنَ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر ٩].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة ١١].

* * *

وعَنْ أبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيْقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له طَرِيْقًا إلى الجَنَّةِ، وإنَّ المَلائكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَها لطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ له مَنْ في السَّمَوَاتِ ومَنْ في الأرْضِ حَتَّى الحِيْتَانَ في المَاءِ، وفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، إنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ

يُورِّثُوا دِيْنَارًا ولا دِرْهَمًا إنَّمَا ورَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ»[١] أحمَدُ وغَيرُهُ.

وقَالَ أيْضًا ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِه خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ»[٢] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قَالَ عَلِيُّ بنُ أبِي طَالِبٍ رَضِي اللهُ عَنْه[٣]:

النَّاسُ في جِهَةِ التَّمْثِيْلِ أكْفَاءُ أبُوْهُمُ آدَمُ والأُمُّ حَوَّاءُ

نَفْسٌ كَنَفْسٍ وأرْوَاحٌ مُشَاكِلَةٌ وأعْظُمٌ خُلِقَتْ فيهِم وأعْضَاءُ

فإنْ يَكُنْ لَهُم مِنْ أصْلِهِم حَسَبٌ يُفَاخِرُوْنَ بِه فالطِّيْنُ والمَاءُ

---

(١) أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٥/ ١٩٦)، وابنُ مَاجَه (٢٢٥)، وأبُو دَاوُدَ (٣٦٤١)، وهُوَ حَسَنٌ بشَوَاهِدِه.

تَنْبِيْهٌ: انْظُرْ لِزَامًا شَرْحَ هَذَا الحَدِيْثِ لابنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، في رِسَالَتِه «شَرْحِ حَدِيْثِ أبِي الدَّرْدَاءِ»، فَفيه مِنَ الدُّرَرِ والجَوَاهِرِ ما يُعْقَدُ عَلَيْها الخَنَاصِرُ!

(٢) أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١/ ٢٧)، ومُسْلِمٌ (٣/ ٩٥).

(٣) انْظُرْ «جَامِعَ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٢١٨)، وبَعْضُ المُحَقِّقِيْنَ يَنْسِبُ هَذِه الأبْيَاتِ إلى عَلِيِّ بنِ أبِي طَالِبٍ القَيْرَوَانِيِّ.

تَنْبِيْهٌ: العَامَّةُ تَقُوْلُ: «قِيْمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ»، والخَاصَّةُ تَقُوْلُ: «قِيْمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يَطْلُبُ»!

مَا الفَضْلُ إلاَّ لأهْلِ العِلْمِ إنَّهُـم عَـلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أدِلاءُ

وقَدْرُ كُـلِّ امْرِئٍ مَـا كَانَ يُحْسِنُه وللرِّجَالِ عَلَى الأفْعَالِ أسْمَـاءُ

***

قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : «العِلْمُ ذَكَرٌ؛ يُحِبُّهُ ذُكُوْرَةُ الرِّجَالِ ، ويَكْرَهُهُ مُؤنَّثُوْهُم»[١] .

أرَادَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَـهُ اللهُ : أنَّ العِلْـمَ أرْفَـعُ المَطَالِـبِ وأجَلُّهَـا، كَـمَا أنَّ الذُّكُوْرَ أفْضَلُ مِنَ الإنَاثِ ، فألِبَّاءُ الرِّجَالِ وأهْلُ التَّمْيِيْزِ مِنْهُم يُحِبُّوْنَ العِلْـمَ، ولَيْسَ كـالرَّأيِّ الـسَّخِيْفِ الَّـذِي يُحِبُّـه سُـخَفَاءُ الرِّجَـالِ، فَـضَرَبَ التَّـذْكِيْرَ والتَّأنِيْثَ مَثَلاً[٢] .

***

---

(١) انْظُرْ «جَامِعَ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٢٥١)، و«الحِلْيَةَ» لأبِي نُعَـيْمٍ (٣/ ٣٦٥)، و«شَرَفَ أصْحَابِ أهْلِ الحَدِيْثِ» للخَطِيْبِ البَغْـدَادِيِّ (٧٠-٧١)، وبَعْضُهم يَنْسِبُها لعَلِيِّ بنِ أبِي طَالِـبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، انْظُـرْ «المَجْمُـوْعَ» للنَّـوَوِيِّ (١/ ٤١) .

(٢) انْظُرْ «المُجَالَسَةَ» لأبِي بَكْرٍ الدِّيْنَوَرِيِّ (٣/ ٤٢٦-٤٢٧) بنَحْوِه .

فَعِنْدَها عَلَيْكَ يا هَذَا : بِمُرَافَقَةِ الأمْوَاتِ الَّذِيْنَ هُم في العَالَمِ أحْيَاءٌ؛ فإنَّهُم يَدُلُّوْكَ السَّبِيْلَ، واحْذَرْ مِنْ مُرَافَقَةِ الأحْيَاءِ الَّذِيْنَ هُمْ في النَّاسِ أمْوَاتٌ؛ فإنَّهُم يُضِلُّوْكَ الطَّرِيْقَ!

ولا تَنْسَ قَوْلَ ابنِ مَسْعُوْدٍ رَحِمَهُ اللهُ : «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا؛ فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فإنَّ الحَيَّ لا تُؤْمَنُ عَلَيْه الفِتْنَةُ»!

ومِنْ مُسْتَجَادِ مَا قِيْلِ في فَضْلِ أهْلِ العِلْمِ، مَا خَطَّتْهُ يَدُ الآجُرِّيِّ رَحِمَهُ اللهُ؛ في كِتَابِهِ «أخْلاقِ العُلَمَاءِ» (١٤)، إذْ يَقُوْلُ عَنْهُم : «فَضْلُهُم عَظِيْمٌ، وخَطَرُهُم جَزِيْلٌ، وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، وقُرَّةُ عَيْنِ الأوْلِيَاءِ، الحِيْتَانُ في البِحَارِ لَهُم تَسْتَغْفِرُ، والمَلائِكَةُ بأجْنِحَتِها لَهُم تَخْضَعُ، والعُلَمَاءُ في القِيَامَةِ بَعْدَ الأنْبِيَاءِ تَشْفَعُ، مَجَالِسُهُم تُفِيدُ الحِكْمَةَ، وبأعْمَالِهِم يَنْزَجِرُ أهْلُ الغَفْلَةِ .

هُمْ أفْضَلُ مِنَ العُبَّادِ، وأعْلَى دَرَجَةً مِنَ الزُّهَّادِ، حَيَاتُهُم غَنِيْمَةٌ، ومَوْتُهُم مُصِيْبَةٌ، يُذَكِّرُوْنَ الغَافِلَ، ويُعَلِّمُوْنَ الجَاهِلَ، لا يُتَوَقَّعُ لَهُم بَائِقَةٌ، ولا يُخَافُ مِنْهُم غَائِلَةٌ، بِحُسْنِ تَأدِيْبِهِم يَتَنَازَعُ المُطِيْعُوْنَ، وبِجَمِيْلِ مَوْعِظَتِهِم يَرْجِعُ المُقَصِّرُوْنَ ...!

فَهُم سِرَاجُ العِبَادِ، ومَنَارُ البِلادِ، وقِوَامُ الأمَّةِ، ويَنَابِيْعُ الحِكْمَةِ، هُمْ

غَيْظُ الشَّيْطَانِ، بِهِم تَحْيَا قُلُوْبُ أهْلِ الحَقِّ، وتَمُوْتُ قُلُوْبُ أهْلِ الزَّيْغِ، مَثَلُهُم في الأرْضِ كَمَثَلِ النُّجُوْمِ في السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِها في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ، إذا انْطَمَسَتِ النُّجُوْمُ تَحَيَّرُوا، وإذا أسْفَرَ عَنْها الظَّلامُ أبْصَرُوا» انْتَهَى .

* * *

ومَهْمَا يَكُنْ؛ فَلا تَحْزَنْ يا طَالِبَ العِلْمِ، عَلَى ظُهُوْرِ الجَهْلِ، وقِلَّةِ العِلْمِ، وقَبْضِ العُلَمَاءِ، واتِّخَاذِ النَّاسِ رُؤوْسًا جُهَّالاً فَضَلُّوا وأضَلُّوا ... فَيَا هَذَا عَلَيْكَ بِزَادِ الأنْبِيَاءِ، وغِذَاءِ العُقَلاءِ : **عِلْمٌ يَنْفَعُ، وعَمَلٌ يُرْفَعُ** .

كَمَا قَالَ تَعَالى :﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة ٢٧] .

وكَذَا : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر ١٠].

* * *

وبَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ يا طَالِبَ العِلْمِ مَخْرَجًا؛ فَكُنْ رَابِعَ أرْبَعَةٍ :

عَالِمًا، أو مُتَعَلِّمًا، أو مُسْتَمِعًا، أو مُحِبًّا .

وأُعِيْذُكَ باللهِ أنْ تَكُنَ الخَامِسَ فَتَهْلَكَ : **وهُوَ مُعَادَاةُ أهْلِ العِلْمِ، أو بُغْضُهُم !**

وهَاكَ مِنْ شَذَاتِ العِلْمِ وفَضَائِلِه، مَا قَالَهُ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا العِلْمَ فإنَّ تَعَلُّمَه لله خَشْيَةٌ، وطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، ومُدَارَسَتَهُ تَسْبِيْحٌ، والبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وتَعْلِيْمَه لِمَنْ لا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وبَذْلَهُ لأهْلِهِ قُرْبَةٌ!

لأنَّه مَعَالِمُ الحَلالِ والحَرَامِ، والأنِيْسُ في الوَحْشَةِ، والصَّاحِبُ في الخَلْوَةِ، والدَّلِيْلُ عَلَى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والزَّيْنُ عِنْدَ الأخِلاَّءِ، والقُرْبُ عِنْدَ الغُرَبَاءِ.

يَرْفَعُ اللهُ بِه أقْوَامًا فَيَجْعَلَهُم في الخَلْقِ قُدَاةً يُقْتَدَى بِهِم، وأئِمَّةً في الخَلْقِ تُقْتَصُّ آثَارُهُم، ويُنْتَهَى إلى رَأيِهِم، وتَرْغَبُ المَلائِكَةُ في حُبِّهِم؛ بأجْنِحَتِهِم تَمْسَحُهُم، حَتَّى كُلُّ رَطِبٍ ويَابِسٍ لَهُم مُسْتَغْفِرٌ، حَتَّى حِيْتَانُ البَحْرِ وهَوَامُه، وسِبَاعُ البَرِّ وأنْعَامُه، والسَّمَاءُ ونُجُوْمُها؛ لأنَّ العِلْمَ حَيَاةُ القُلُوْبِ مِنَ العَمَى، ونُوْرُ الأبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وقُوَّةُ الأبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ.

يَبْلُغُ بِه العَبْدُ مَنَازِلَ الأحْرَارِ ومُجَالَسَةَ المُلُوْكِ، والدَّرَجَاتِ العُلَى في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والفِكْرُ بِه يُعْدَلُ بالصِّيَامِ، ومُدَارَسَتُه بالقِيَامِ، بِه يُطَاعُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ، وبِه يُعْبَدُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ!

وبِه تُوْصَلُ الأرْحَامُ، وبِه يُعْرَفُ الحَلالُ مِنَ الحَرَامِ، إمَامُ العَمَلِ، والعَمَلُ

تَابِعُه، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، ويُحْرَمُهُ الأشْقِيَاءُ»[1] انْتَهَى .

* * *

فَلأجْلِ هَذَا؛ أحْبَبْتُ أنْ أطْرُقَ هَذِه الجَادَّةَ العِلْمِيَّةَ؛ عَسَانِي أدُلُّ السَّالِكَ، وأحُثُّ الهِمَمَ إلى طَرْقِ بَابِ العِلْمِ، دُوْنَمَا إعْيَاءٍ وكِلالٍ، وطُوْلٍ ومِلالٍ، قَدْ لا يُحَصِّلُ شَادِي العِلْمِ فيه كَبِيْرَ فَائِدَةٍ، أو عَظِيْمَ عَائِدَةٍ، أو غَيْرَه مِنْ مَبَاغِي العِلْمِ ومَنَارَاتِه؛ مِمَّا نَدَّتْ عَنْهُ أكْثَرُ أطَارِيْحِ أهْلِ زَمانِنَا؛ لِجَهْلِهِم بطَرَائِقِ الطَّلَبِ ومَدَارِجِهِ الآخِذَةِ بِرِقَابِ العِلْمِ؛ فَنًّا بَعْدَ فَنٍّ، وبَابًا قَبْلَ بَابٍ، وهَكَذا دَوَالَيْكَ مِمَّا هُوَ طَوْعُ يَدَيْكَ!

* * *

وهَذَا مَا ذَكَرَه ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِه في كِتَابِهِ «الفَوَائِدِ» (٣٠٤) : «الجَهْلُ بالطَّرِيْقِ وآفَاتِها والمَقْصُوْدِ : يُوْجِبُ التَّعَبَ الكَثِيْرَ مَعَ الفَائِدَةِ القَلِيْلَةِ» .

وقَدْ قِيْلَ : «مَنْ لَمْ يُتْقِنِ الأُصُوْلَ؛ حُرِمَ الوُصُوْلَ» .

---

(١) انْظُرْ «أخْلاقَ العُلَمَاءِ» للآجُرِّي (٣٧)، و«جَامِعَ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٥٥)، و«تَذْكِرَةَ السَّامِعِ والمُتَكَلِّمِ» لابنِ جَمَاعَةَ (١١)، و«شَرْحَ حَدِيْثِ أبِي الدَّرْدَاءِ» لابنِ رَجَبٍ (٣٨) وفيهِ ضَعْفٌ .